زيارة الرئيس الإيراني إلى سورية
قراءة في السياق والآثار والغايات

مركز إدراك للدراسات والاستشارات
IDRAK CENTER FOR STUDIES & CONSULTATIONS
IDRAK

مقدمة

في الثالث من أيار/مايو زار الرئيس الإيراني "إبراهيم رئيسي" -لمدة يومين- العاصمة السورية دمشق التقى فيها رئيس النظام السوري "بشار الأسد" وعدة مسؤولين في نظامه، نتج عنها -بحسب المُعلَن- توقيع 15 مذكرة تفاهم اقتصادية في مجالات البنية التحتية والزراعة والنفط والمعارض وإعادة الإعمار والثروات الباطنية والاتصالات والنقل وغيرها، إلى جانب توقيع خطة تعاون شامل واستراتيجية طويلة الأمد بين البلدين.

في تحركات الزيارة نرى "رئيسي" يزور منطقة السيدة زينب جنوبي دمشق التي سيطرت عليها الميليشيات الإيرانية وعملت على إضفاء طابع شيعي كامل عليها إلى جانب زيارة الفصائل الفلسطينية الداعمة للنظام السوري، في دلالات على تلويح إيران تمسكها بمكاسبها في التغيير الديموغرافي والورقة الفلسطينية، وهذا ما يؤكد وجود سياقات متعددة للزيارة وانعكاسات اقتصادية وسياسية معلنة وخفية.

أولاً: سياقات الزيارة

من المهم ملاحظة عدة سياقات مهدت لهذه الزيارة أو ترافقت معها، أبرزها:

- مجيء الزيارة بعد استطاعة إيران ضبط الوضع الداخلي الإيراني، والسيطرة على الاحتجاجات الكبيرة التي عمّت البلاد في الأشهر الماضية، إلى جانب تروّي إيران في إجراء الزيارة بعد زلزال شباط/فبراير مباشرة وانتظارها إثمار مسار دبلوماسية "المسار الإنساني" في إنضاج أجواء قبول عودة النظام السوري للجامعة العربية.

- تأتي الزيارة بعد تحضيرات كبيرة ومكثفة من قبل المسؤولين الإيرانيين الذين زاروا دمشق خلال الأشهر الفائتة، مثل:
- زيارة وزير التخطيط والطرق الإيراني "مهرداد بذرباش"، نهاية نيسان/ إبريل 2023 مع وفد اقتصادي كبير، أُعلِن خلالها عن تشكيل 8 لجان مشتركة مع حكومة نظام الأسد، تشمل قطاع المصارف والنفط والصناعة والنقل والسياحة والإسكان.

- زيارة وزير الخارجية الإيراني "حسين عبد اللهيان"، نهاية نيسان/ إبريل 2023 أُعلِن فيها عن تباحث الأوضاع السياسية.

- زيارة قائد الحرس الثوري الإيراني "إسماعيل قآني" عدة مرات إلى سورية كان آخرها منتصف آذار/ مارس 2023.

- القيام بإعادة نشر وتمركز الميليشيات الإيرانية في سورية، والتمدد الفعلي -عبر سرايا الخراساني- إلى مناطق شرق الفرات.

- اتسقت الزيارة مع انفتاح عربي عمومًا وسعودي خصوصًا تجاه نظام الأسد، وعقب الاجتماع الخماسي الذي عقد في الأردن لمناقشة الملف السوري، الإثنين 1 أيار/ مايو، وضم كلًا من السعودية والعراق والأردن ومصر ونظام الأسد.

- اتسقت الزيارة مع بدء اللجان السعودية والإيرانية ببحث سبل تطبيق الاتفاق السعودي-الإيراني في إعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وبدء انعكاس هذا الاتفاق على الملفين اليمني والسوري، وبالرغم من هذا فإن لدى إيران قلقًا من أي دور محتمل في المستقبل للسعودية وتركيا في إعادة إعمار المدن السورية، خاصة أنهما تمتلك قدرات مالية ضخمة، في حين أن تركيا تمتلك المؤهّلات التّقنيّة والهندسيّة والموقع الجغرافي المُناسب على حدود سورية للمشاركة في العمليّة مُستقبلاً.

- توافق الزيارة مع ظهور مؤشرات لتراجع النفوذ الروسي في سورية وتوجيه بعض قواتها منها إلى أوكرانيا، بالتوازي مع توتر المواقف بين إيران والولايات المتحدة -من جهة- وتكثيف "إسرائيل" ضرباتها الجوية على القواعد الإيرانية في سورية من جهة أخرى، حيث كان آخرها استهداف مطار حلب الدولي صباح الثلاثاء 2 أيار/ مايو.

ثانيًا: دلالات الزيارة وأهدافها

- من المؤكد أن زيارة الرئيس الإيراني إلى دمشق ولقاءاته السياسية والأمنية والاقتصادية لم تكن وليدة التوجه الحالي، وإنما هي سياق متصل وخطة مرسومة منذ زمن، فقد تكرر الإعلان عن تخطيط الرئيس "رئيسي" لزيارة سورية ثلاث مرات أواخر عام 2021، وأواخر عام 2022 وتصاعد في كانون الثاني/ يناير 2023، وهذا يؤكد أن الزيارة كانت مقررة منذ زمن طويل إلا أن القيادة الإيرانية كانت تنتظر السياق الإقليمي المناسب وهو ما تحقق بعد الاتفاق السعودي الخليجي وبدء عجلات التطبيع العربية بالدوران تجاه دمشق.

- من أهم دلالات الزيارة التأكيد على أن إيران لم ينحصر دورها في الحفاظ على نظام الأسد من السقوط العسكري فحسب وأنها استطاعت قراءة المشهد السياسي بشكل دقيق، وبذلك ضغطت على القوى الإقليمية الأخرى لتدفعها للقبول بإعادة تعويم النظام السوري من جديد.

- التأكيد على الجغرافية السورية ستبقى مجالًا حيويًّا لإيران وبالتالي فإنها ستستغل هذا المجال لتهديد المصالح الإقليمية -خاصة إسرائيل- وعليه فإن تلويحها بهذه السيطرة يحتوي دعوة ضمنية للتفاهم والتفاوض على حدود النفوذ، ومن المرجح أن التفاوض يستهدف -كذلك- دفع تل أبيب للقبول بالواقع النووي الإيراني وعدم عرقلة أي اتفاق مستقبلي حول برنامجها النووي مع القوى الدولية.

- التأكيد على أن النظام السوري بات محتكمًا بشكل شبه مطلَق للجمهورية الإيرانية، وبالتالي فإنه لا يستطيع الفكاك من هيمنتها، وعليه أن يؤدي لها كافة النفقات التي دعمته من خلالها، سواء بمبالغ نقدية أو من خلال دعم خططها الإستراتيجية في سورية التي تقتضي التنازل عن ثروات باطنية ووزارات سيادية لصالحها، خاصة أن بنود هذه "الاتفاقات الاستراتيجية" تبقى سرية، مما يعني منح إيران حرية السيطرة والتحكم بالمشاريع والثروات السورية، وبمن سيدخل بعملية إعادة الإعمار لاحقًا، وبالتالي التأكيد على الحق الشرعي لوجود إيران في سورية

- سعي إيران لضبط حراك التفاهم العربي والتركي مع نظام الأسد على النحو الذي يحمي المصالح الإيرانية في سورية، مما قد يشكل استراتيجية موحدة تهدف إلى الضغط على الوجود العربي والتركي أو التركي وحده في سورية خلال المرحلة المقبلة خاصة أن إيران أُقصِيَت من الاجتماعات الثلاثية التي ضمت روسيا وتركيا ونظام الأسد خلال الفترة الماضية، وبالتالي فإن الزيارة تأتي في سياق محاولة طهران إثبات ثقلها في الملف السوري في وجه الحضور التركي.

ثالثًا -آثار المتوقعة للزيارة

- من المرجح أن تعكس هذه الزيارة عدة آثار في العلاقة بين النظام السوري وإيران من جهة، والمحيط الإقليمي والدولي من جهة أخرى، ويمكن الإشارة إلى أبرز هذه الآثار المتوقعة بالآتي:

- ترجيح إيران التعامل مع السعودية وتركيا وبقية الفاعلين الإقليميين في سورية بوصفهم مستثمرين مساهمين في البلاد لهم وجود لا تنافس أفضليتها ومكاسبها المطلقة، وبالتالي ترجيح لغة المفاوضات -بما تتضمنه من شد وجذب- في المستقبل القريب حول المسار السوري.

- استغلال إيران هيمنتها المطلقة على النظام لتعويض ديونها عليه من خلال منح إيران عقارات وأراضي بالمدن الرئيسية، سواء من ملكية الدولة أو مصادرات المحجوز على ممتلكاتهم من المعارضين، وتعزيز مكاسبها في العديد من المجالات الاقتصادية والسيادية من جهة أخرى وذلك من خلال العمل على التغلغل في قطاعات العقار والمطاحن والاتصالات والطاقة والتصنيع والفوسفات والنفط والكهرباء والنقل البحري والجوي والبري، من خلال توقيع الاتفاقات الاقتصادية طويلة الأجل، إضافة إلى اتفاقات أخرى بعناوين ثقافية وعلمية، وغير مستبعد إحياء الاتفاقات السابقة التي لم تنفذ، مثل اتفاق إحداث عدة بنوك إيرانية في سورية، وبالتالي ترسيخ الوجود الإيراني في سورية عبر الهيمنة المطلقة على هذه المجالات.

- تأمين دعم مستمر للحرس الثوري الإيراني، وذلك من خلال الموقع الاستراتيجي لسورية، وعبر المزايا المطلَقة التي تمتلكها شبكات الحرس الثوري، حيث تسيطر على العديد من الموارد، أبرزها تجارة العقارات والمخدرات، والتهريب من/إلى العراق عبر معابر غير رسمية، إضافة إلى النفط المستخرج من عدة حقول يسيطر عليها في البادية السورية.

- إكمال خط سكك الحديد التي تربط كلا من إيران والعراق وسورية، لا سيما مع محاولة إيران إعادة إحياء دبلوماسية الطرق -طريق السبايا- وذلك بـ

- سعي إيران لإنشاء ممرٍّ آمن يصل طهران بسواحل البحر الأبيض المتوسط وذلك عبر ميناء اللاذقية -نظرًا لسيطرة روسيا على ميناء طرطوس-، وبالتالي يكون لها موطئ قدم ثابت على المتوسط من خلاله، وقد فطنت إسرائيل لهذا التوجّه وقصفت الميناء أكثر من مرة واستهدفت بشكل خاص التجمّعات الإيرانية فيه.

- سعي إيران أيضًا للانخراط الفاعل في مشروع طريق الحرير الصيني وربط الممر التجاري من شمالها إلى جنوبها لتعزيز التجارة مع روسيا من جهة ومع دول الإقليم من جهة أخرى.

- سعي إيران للسيطرة على الطريق الدولي -بغداد/دمشق- إلا أن وجود خلايا داعش بالقرب من المنطقة تؤخر تحقيق هذه السيطرة المطلقة، إلى جانب أن الولايات المتحدة تتمركز -مع فصيل مغاوير الثورة- الحدود السورية العراقية بمساحة واسعة نصف قطرها 55 كيلومتراً مركزها منطقة التنف مما يمنع سيطرة إيران المطلقة على هذا الطريق.

- تطوير آلية مواجهة الضربات الإسرائيلية والأمريكية في سوريا، وفق تكتيكات جديدة، مثل ضم بعض المليشيات لصفوف الجيش السوري، كما حدث في وقت سابق عندما أصدر رأس النظام السوري – بضغط إيراني - قرارات تقضي بضم "لواء الباقر" في دير الزور إلى صفوف القوات النظامية، وتحويل اسمه إلى اللواء 137 التابع إلى الفرقة 17.
من المتوقع أن تكثف إسرائيل ضرباتها الجوية في سورية ردًا على الزيارة، وهو ما فعلته سابقًا حيث نفذت غارات جوية بالتزامن مع إحدى زيارات وزير الخارجية الإيراني "حسين عبد اللهيان" في رسالة إسرائيلية، أن تل أبيب ماضية في استراتيجيتها العسكرية القائمة على استهداف القواعد الإيرانية في سوريا، واستهداف نظام الأسد كلما أبدا خطوة تقاربية تجاه طهران.

- من المتوقع أن نشهد مزيدًا من التصعيد في الهجمات الإيرانية، ضد الوجود الأمريكي، حيث تفيد المعلومات بسعي المليشيات الإيرانية للتغلغل في مناطق شرق الفرات عبر تشكيل ميليشيا سرايا الخراساني وجعلها واجهة لجبهة مقاومة شعبية من السكان المحليين، لاستهداف الوجود الأمريكي، دون إعلان مسؤوليتها عن ذلك، بهدف مضايقة القوات الأمريكية في سورية، ودفعها للانسحاب على المدى البعيد.

- من المحتمل أن نشهد إعادة انتشار للتموضع العسكري الإيراني، على نحو يظهر انحسار مناطق انتشار النفوذ الإيراني، مقابل امتيازات غير معلنة تمكن طهران من ترسيخ وجودها من خلال الأدوات الناعمة، مع احتمالية أن نشهد قرارات مماثلة لقرار ضم أجزاء من مليشيا "لواء الباقر" إلى الفرقة 17 وتكثيف منح الجنسية السورية لقادة وعناصر تلك المليشيات، وترك إدارتها وخططها وميزانياتها تابعة للحرس الثوري الإيراني.

خلاصة

تأتي زيارة رئيسي إلى سورية في ظل توفر عدد من السياقات وبروز مناخ مناسب لتصعيد نشاطها الإقليمي وتأكيد هيمنتها في الملف السوري إلى جانب ملفات أخرى، إلا أن النجاح النهائي في هذا الملف والانعكاسات المحتملة لهذه الزيارة مرتبطة بمتغيرات المنطقة بدرجة أولى، فمن المحتمل أن يكون التطبيع العربي مع النظام السوري ضعيف الأثر لدعم إستراتيجية في المنطقة، كما أن الانزياح الحالي تجاه الأسد لا يحقق المطلوب من دعمه بالأموال اللازمة لإعادة الإعمار -ولو بالحد الأدنى- كما أن وجود القواعد الأمريكية والتركية في شمال سورية وشرقها وعلى الحدود مع العراق يمنع من سيطرة إيران المطلقة على سورية ويترك الحلّ النهائي معلّقًا، إلى جانب الحضور الإسرائيلي الذي يركز على منع تحقيق إيران من التمركز العسكري الاستراتيجي في سورية

وبالرغم من ذلك، فإن انعكاسات الزيارة المحتملة في مجملها تصب في صالح إيران، سواء من حيث الاستعراض الإعلامي أو الدلالات الضمنية والمباشرة التي تظهر سيطرتها المطلقة على ما تبقى من أجهزة النظام البيروقراطية والموازية أو من خلال تعزيز موقع الحرس الثوري والميليشيات الإيرانية في سورية وتأمين موارد الدعم اللازمة لها من خلال التفاهمات الاقتصادية غير المعلنة.

IDRAK
FOR STUDIES & CONSULTATIONS • للدراســـات والاستشـــارات
idraksy
www.idraksy.net